

"انفتاح الدلالة في النص القرآني الشريف:

وجه من وجوه الإعجاز المُعجِب"

في هذه الورقة محاولة للكشف عن مَلَحَظٍ دلاليّ جزئيّ ارتضيث له اسم "انفتاح الدلالة"، وليس المقصد المتعين من هذا التأويل، بل تعدد المعاني في السياق الواحد وتضافرها في دلالة السياق الشريف، وهو متجلّ في مستويات اللغة المتباينة: الصوتي، والصرفي، والتركيبّي، والمعجمي، ثم يأتي عقب هذا احتراس مضماره أن ذلكم الانفتاح الدلاليّ ليس مُلقًى على عَواهنه، فقد يقف المرء وجاه آيات كريمات يتجلّى فيها "انغلاق الدلالة" واقتصارها على وجهة معنويّة واحدة، ثم تُختتم هذه الورقة بالتعريح على استشراف العلل التي يُفسّر بها "الانفتاح الدلالي".

“The Openness of Signification in the Honorable Quranic Text:
A facet of Wondrous Inimitability”

This paper attempts to shed light on a partial signifying remark . It should be mentioned that interpretation is not intended , but rather the multiplicity of meaning within a single context .However , the multiplicity of signification is manifested in the different levels of the language ; namely the phonological, the morphological, the syntactical , and the lexical. In addition, it will be noted that in some cases the signification is bounded;because one can find honorable Quranic verses which demonstrate “closeness of signification”;because they are confined to one meaning only .Finally , this paper deals with the causes by which the openness of signification can be interpreted .

د.مهدي أسعد عرار_ فلسطين

الضفة الغربية _بئر زيت

جامعة بئر زيت .ص.ب.14

قسم اللغة العربية _كلية الآداب

هاتف العمل 0097222982176

ناسوخ 0097292333808

تقديم:

لَمَّا كَانَتْ مُعْجَزَةٌ كُلِّ نَبِيٍّ مِمَّا شَاعَ عِنْدَ قَوْمِهِ ، وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ أَهْلَ لَدَدٍ وَفَصَاحَةٍ . لَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ . نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ عَلَى سَبِيلِ التَّحَدِّيِّ وَالْإِعْجَازِ ، فَأُفْحِمَ الْخُصُومَ ، وَأَفْضَى بَعْضِهِمْ إِلَى التَّقْرِيرِ بِأَنَّ عَلَيْهِ طُلَاوَةً ، وَأَنَّ لَهُ حِلَاوَةً ، وَأَنَّ أَعْلَاهُ مَثْمَرٌ ، وَأَنَّ أَسْفَلَهُ مُعَدَّقٌ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ ، وَالْحَقُّ أَنَّ اسْتِشْرَافَ الْبَوَاعِثِ الَّتِي أَذْنَتْ بِهَذَا التَّقْرِيرِ مِنْ رَجُلٍ يَنْتَسِبُ إِلَى أَوْلِيَاءِكَ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ نَاصِيَةَ اللُّغَةِ ، وَالْمَلَكَةَ الْبَيَانِيَّةَ الْمُعْجَبَةَ ، يُفْضِي إِلَى الْمَكْثِ فِي تَلْمُسِ وَجْهِهِ إِعْجَازِهِ ، وَفِي هَذِهِ الْوَرَقَةِ مَحَاوَلَةٌ لِلْكَشْفِ عَنْ مَلْحَظٍ دِلَالِيٍّ جَزْئِيٍّ ارْتَضِيَتْ لَهُ اسْمٌ "انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ" ، وَلَيْسَ الْمَقْصِدُ الْمَتَعَيْنُ مِنْ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ التَّأْوِيلُ ، بَلْ تَعَدُّدُ الْمَعَانِي فِي السِّيَاقِ الْوَاحِدِ وَتَضَافَرُهَا مَعَا فِي دِلَالَةِ السِّيَاقِ الشَّرِيفِ ، وَقَدْ بَدَأَ لِي أَنْ اِنْشَغَلِي بِهَذَا الْمَطْلَبِ أَنْ تُثَلِّمَ مَا أُرِيدُ تَمَثُّلَهُ مَتَكَثَرَةً ، وَأَنَّهَا تَقَعُ فِي مَسْتَوِيَّاتٍ مُتَبَايِنَةٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَقَعُ فِي مِضْمَارِ الْمَسْتَوَى الصَّوْتِيِّ ، وَالصَّرْفِيِّ ، وَالتَّرْكِيبِيِّ ، وَالْمَعْجَمِيِّ . وَلَعَلَّهُ يَحْسُنُ أَنْ أَقْدِمَ لِكَلَامِي هَذَا احْتِرَاسًا مَضْمُونُهُ أَنَّ انْفِتَاحَ الدَّلَالَةِ . فِي غَيْرِ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ الشَّرِيفِ . قَدْ يَكُونُ ذَا صِبْغَةٍ سَلْبِيَّةٍ ؛ إِذْ إِنَّ الْمَتَكَلَّمَ قَدْ يَأْتِي بِهِ لِلإِبْهَامِ دُونَ الإِحْكَامِ ، فَلَا يَقِفُ السَّامِعُ عَلَى مُرَادِهِ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ دُونَ التَّحْكُمِ ، وَإِخَالٌ أَنَّ هَذَا الْعِنْوَانَ الْعَرِيضَ "انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ" يَعْوَرُهُ فَضْلُ بَيَانٍ لِيَنْتَقَلَ بِهِ الْبَاحِثُ مِنْ مِضْمَارِ التَّنْظِيرِ إِلَى مِضْمَارِ التَّطْبِيقِ بُغْيَةً تَجْلِيَّةً بَوَاعِثِهِ وَمَوَاضِعِهِ ، وَلِذَا سَأَخُذُ بِحَثِي بِقَوَائِمِهِ مُبْتَدَأً بِانْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ فِي :

المستوى الصوتي :

ثَمَّةَ بَاعْثَانِ عَلَى انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ فِي الْمَسْتَوَى الصَّوْتِيِّ : أَوْلُهُمَا الْمَفْصَلُ ، فَهُوَ سَكْتَةٌ كَلَامِيَّةٌ خَفِيْفَةٌ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ أَوْ الْجُمَلِ ؛ إِذْ إِنَّهَا سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ تَعْيِينِ حُدُودِ الْكَلِمَاتِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ "إِنَّمَا" وَ"إِنْ" وَ"أَنْ" ، وَسَبِيلٌ مِنْ سَبُلِ انْفِسَاخِ نَسِيْجِ التَّرْكِيبِ الْجُمْلِيِّ (1) ، وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِمَطْلَبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَفَاصِلِ الصَّوْتِيَّةِ الْحَدِيثُ عَنِ الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ ؛ إِذْ إِنَّهُ مَطْلَبٌ لَهُ خَطَرُهُ فِي إِقَامَةِ الْمَعَانِي ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ ، وَاسْتِنْبَاطَاتٌ غَزِيرَةٌ ، وَبِهِ تَتَبَيَّنُ مَعَانِي الْآيَاتِ ، وَيُؤْمَنُ الْاحْتِرَازُ عَنِ الْوَقُوعِ فِي الْمَشْكَلَاتِ (2) ، وَقَدْ قَالَ عَنْهُ الْقَسْطَلَانِيُّ مُعْرَجًا عَلَى

سُهِمَتْهُ فِي بَيَانِ الْمَعْنَى : "وَلَا مَرِيَّةً أَنْ بِمَعْرِفَتَيْهَا تَظْهَرُ مَعَانِي التَّنْزِيلِ ، وَتُعْرَفُ مَقَاصِدُهُ ، وَتَسْتَعْدُّ الْمَفْكَرَةَ لِلْغَوْصِ فِي بَحْرِ مَعَانِيهِ ، عَلَى دَرَرِ فَوَائِدِهِ ، ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْنِيِّينَ الْمَخْتَلِفِينَ ، وَالنَّقِيضِينَ الْمُتَبَايِنِينَ ، وَالْحَكْمِيِّينَ الْمُتَغَايِرِينَ ... (3) ، وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ الْآتِيَةِ مِنْ تَبَايُنِ وَجْهِ الْقَوْلِ عَلَى الْمَفْصَلِ قَوْلُ الْحَقِّ . تَنْزَهُ . : "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ" (4) : الظاهر أن تباينَ المَفْصَلِ يفضي إلى انفساخِ نسيجِ التركيبِ ، لِيُؤَدِّنَ هَذَا إِلَى انْفِتَاحِ دِلَالِيٍّ ، فَقَدْ تَبَايَنَ وَجْهُ الْقَوْلِ عَلَى إِعْرَابِ الْمَصْدَرِ "أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ" ، فَقِيلَ . :

1- هو بدلٌ مجرورٌ من "سواء" أو من "كلمة".

2- أو هو مرفوعٌ ، والتقديرُ : هي أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وفي هذه المعاني يظهرُ الكلامُ متواشجاً غيرَ متفَاصِلِ ، وموضعُ المَفْصَلِ : "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ" . وقيلَ . وهنا المَفْصَلُ يُؤَدِّنُ بِاسْتِشْرَافِ لِمَحَةِ إِعْجَازٍ . إِنَّ الْكَلَامَ تَمَّ عَلَى "سواءٍ" ثُمَّ اسْتَوْفَى ، فَعَدَا السِّيَاقُ الشَّرِيفُ :
 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ Δ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، "وسواءٍ" ههنا صفةٌ لكلمة (5) ، وقد تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَهَا لِإِيْتِيِ دَوْرِ الْمَفْصَلِ الصَّوْتِيِّ فِي انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ ، لِيُعْقَبَ هَذَا اسْتِحْسَانٌ مَرْدُّهُ إِلَى تَخْلُقِ خَاطِرٍ مَضْمُونُهُ أَنَّ النِّظْمَ التَّرْكِيبِيَّ الْوَاحِدَ قَدْ يَكُونُ حَمَالاً لِأَوْجِهٍ مُتَعَدِّدَةٍ ؛ إِنَّ ذَلِكَ مَرْدُّهُ إِلَى الْمَفْصَلِ ، وَيَغْدُو الْمَعْنَى الْمُتَعَيَّنُ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي وَهُوَ "بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ" كَقَوْلِ أَحَدِنَا فِي مَقَامِ تَرْغِيبٍ أَوْ تَرْهِيْبٍ : "بِئْسَ وَبِئْسَ هَذَا الْأَمْرُ" ، وَالَّذِي يُنْمِي تَخْلُقَ الشُّعُورِ بِالْإِعْجَازِ فِي النَّفْسِ هُوَ أَنَّ ثَمَّ وَجْهَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ فِي قِرَاءَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَفِي كُلِّ وَجْهِ تَقْدِيرٌ يَنْبَنِي عَلَيْهِ حَكْمٌ ، وَلَكِنَّهُمَا يَتَّفِقَانِ وَدِلَالَةَ السِّيَاقِ الْكَلِمِيَّةِ ، وَهِيَ : بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ .

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُ الْحَقِّ . تَبَارَكَ . "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً" (6) .

يُظْهَرُ أَنَّهُ يَتَبَايَنُ الْمَعْنَى . ثَانِيَةً . بَتَبَايُنِ الْمَفْصَلِ الصَّوْتِيِّ ، فَقَدْ يَكُونُ الْوَقْفُ الْكَافِي بَعْدَ قَوْلِهِ : "عَلَيْكُمْ" ، وَالتَّقْدِيرُ :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ Δ أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا "، والمصدرُ المؤولُ "ألا تشرِكوا به شيئاً" في محلِّ رفعِ خبرٍ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه "هو"، وقد يكونُ الوقفُ بعدَ "رَبِّي" : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ Δ أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا "، ولا ريبَ أنَّ ثمةَ انفتاحاً في الدلالةِ ههنا، والمعنى هو الإغراء، والعامل فيه "عليكم" (7)، وهو كقولنا : عليك الذهابُ الآن، وليس يخفى على ذي تبصّرٍ أنَّ كلاماً يُفصي تباينُ المفصلِ فيه إلى استشرافٍ وجهٍ تركيبِيٍّ جديدٍ يثيرُ في النفسِ استحساناً لهو من الدواعي المُقرّرة: "وما هو بقولِ بشرٍ":

(1) "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ Δ "

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ Δ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ "

(2) "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ Δ أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا "

"قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ Δ أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا "

والباعثُ الثاني على انفتاحِ الدلالةِ في المستوى الصوتيِّ التَّنغيمِ الذي له سُهْمَةٌ في تعيينِ المعاني النحويّةِ العريضةِ، كالاستفهامِ والتعجّبِ والنداءِ وغيرِ ذلك (8)، وممّا انفتحتْ دلالتهُ وتعدّدَ القولُ على إعرابهِ عائداً إلى هذا المَطْلَبِ، ومنه قوله . تنزّه . "ما أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ" (9)، وقد ترددَ المُعربون في إعرابِ "ما" في هذا السياقِ بين وجهين متباينين، أوْلُهُما أنّها استفهاميّةٌ، والمعنى المتعيّنُ من هذه الآيةِ: أيّ شيءٍ أغناه عنه ماله يومَ القيامةِ؟، وثانيهما أنّها نافيةٌ كقولنا: ما جاءَ محمّدٌ، والمعنى: لم يُغنِ عنه ماله وما كسبَ (10)، وقد ذهبَ إلى هذين المعنيين دونَ ترجيحِ أحدهما القرطبيُّ والطبرسيُّ وأبو حيّان (11)، وليس يخفى أنّ استفادَ التَّنغيمِ، تنغيمِ الاستفهامِ أو تنغيمِ النفيِّ يؤدُنُ بتعيّنِ المعنى، ولكنّ هذين المعنيين في هذا السياقِ . مع افتراقهما . يتضافرانِ للدلالةِ على نفيِ المعنى الكلّيِّ: إمّا بالاستفهامِ أو النفيِّ، وكلاهما مُفضٍ إلى المعنى المتعيّنِ .

وشبيهةٌ بهذا قولُ الحقِّ . تبارك . "قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ" (12)، فقد يستقيمُ أن يُقالَ إنَّ "ما" تعجبِيّةٌ، كقولنا: ما أجملَ السماءَ !، أو أن يُقالَ إنّها استفهاميّةٌ، والمعنى: أيّ شيءٍ حملَ الإنسانُ على الكفرِ مع ما يرى من الآياتِ الدالةِ على التوحيدِ (13)

،وليس يخفى أن ثمة انفتاحًا في دلالة الآية الشريفة، وأن مرد ذلك إلى "التنغيم" ،ومع هذا كله يلتقي معنى التعجب مع معنى الاستفهام ليدلاً على عناد الإنسان وتماديه في الكفر ،والمَلْحَظُ الْمُعْجِزُ ههنا أن الله العظيم . وكلُّ شيء عنده بمقدارٍ . لم يخص معنى دون معنى ، بل جاءت دلالة الآية مفتوحةً دون أن يفضي هذا إلى مساسٍ بالمعنى الكليّ ،وهو التنبيه على كُفْرِ الإنسان وعناده ،إما بالتعجب أو بالاستفهام الإنكاريّ .

في المستوى الصرفي :

وقد يقع الانفتاح الدلالي في المستوى الصرفي ،أي في أبنية الكلم ، ومن بواعث ذلك "تناوب الصيغ" ، والحق أن هذه الظاهرة لها حضورها في العربية، ومن ذلك قيام "مفعول" مقام المصدر (14)، وقيام "فاعل" مقام المصدر ، وقيام "فعل" مقام فاعلٍ ومفعولٍ ومُفْعِلٍ، وقيام "أفعل" مقام "فعل" (15) ، وفعل مقام "مفعول" (16) ، ومن أمثلة ذلك في التنزيل العزيز قوله . جل . "لا عاصم اليوم من أمر الله" (17) :

لما عرّج المفسرون واللغويون على هذه الآية الشريفة تردّدا بين معنيين مركوزين في الصيغة "عاصم"، أوّلها أنها على ما هي عليه من كونها اسم "فاعل":عاصمٌ ،والمعنى :لا أحد يعصمك اليوم من أمر الله ،وثانيهما أن هذه الصيغة تنسب إلى ظاهرة تناوب الصيغ ،فهي اسم مفعول جاء في حلة اسم الفاعل : "عاصمٌ :معصومٌ" ،والمعنى :لا أحد معصومٌ من أمر الله (18)، وهذا وجه لا يُدْفَع ،فنحن نقول :الطاعم الكاسي ، والمعنى :المطعم المكسو ،ووجه الإعجاز في هذا السياق الشريف ملحظان ،أوّلها :أن صيغة واحدة قامت مقام صيغتين فاشتملت على معنيين ،وثانيهما أن المعنى في مُحصَلِته النهائية واحدٌ ، فالله العزيز يريد أن ينفي هذا الأمر بكلّيته ، فلا أحد معصومٌ من أمر الله إلا من رحم ،ولا أحد عاصمٌ من أمر الله ؛ ذلك أن العذاب قد حقّ بهم ،وبقي ابنُ النبي نوح . عليه السلام . ممن ظلّوا

في طغيانهم يعمهون متكبرين جاحدين ، وهو يظنّ أنه سيأوي إلى جبلٍ يعصمه من أمر الله ، ولكن هيهات هيهات ، لا عاصم ولا معصوم من أمر الله ذاك (19) .

ومن مثل ما تقدّم قوله . تعالى : " لا تسمعُ فيها لاغيةً " (20) ، وانفتاح الدلالة هنا أت من معنى الصيغة الصرفية : " لاغية : فاعلةً " ، فقد يكونُ بمعنى المصدر " اللغو " و " اللغا ، فالصفة تقوم مقام المصدر ، وقد يكونُ : لا تسمعُ فيها جماعةً لاغية ، أو كلمةً لاغيةً ، أو قائله لغواً (21) ، وذكر القرطبي أنّ فيها ستة أوجه ، أولها : لاغية : كذب وبهتان وكفر ، وهذا مذهب ابن عباس ، وثانيها : باطلٌ ولا إثم ، وهذا مذهب قتادة ، وثالثها : الشتم ، وهذا قاله مجاهد ، ورابعها : المعصية ، وهو للحسن ، وخامسها : لا يُسمع فيها حالفٌ يحلفُ كذبا ؛ قاله الفراء ، وسادسها : لا يُسمع في كلامهم كلمة بلغو ؛ وهو للفراء أيضا (22) ، ولا شيء يدفع هذه المعاني ، ووجه الإعجاز هو انفتاح دلالة " لاغية " ، وكلّ المعاني التي تلتقي عليها تجتمع لتؤذن بنفي اللغو بكليته .

ومن أمثلة اشتمال صيغة صرفية واحدة على معانٍ صرفية متباينة كلمة "مؤعد" في قوله . تبارك . : " فاجعل بيننا وبينك مؤعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى " (23) ، والمعلوم أنّ صيغة "مفعِل" قد تكون اسمَ زمانٍ أو اسمَ مكانٍ أو مصدرا ميميا ، والقرآن يُصدّق بعضه بعضا ، فقد وردت "مؤعد" في غير هذا السياق الشريف وهي دالةٌ على مثل ما تقدّم ، ومن ذلك دلالتها على الزمان في قوله - تبارك - : " إن مؤعدهم الصبح " (24) ، ودلالتها على المكان في قوله - تعالى - : " إن جهنم لمؤعدهم أجمعين " (25) وقد احتملت كلمة مؤعد هذه الوجوه الثلاثة ، وقد تنبّه إلى هذا الملحظ ابن هشام ، فوقفَ عندها مشيرا إلى أنّ هذه الصيغة حمالةٌ لثلاثة معانٍ ، أولها المصدر ، ويعضدُ هذا المعنى قوله . تعالى . في الآية " لا نخلفه نحن ولا أنت " : أي لا نخلفُ المؤعدَ "الوعد" ، وثانيها اسمُ الزمان ، ويعضدُ هذا المعنى الصرفيُّ قوله _ تعالى _ في الآية التي تليها : " قال مؤعدكم يوم الزينة " ، وثالث هذه المعاني اسمُ المكان ، ويعضدُ هذا قوله - تعالى - : " مكانا سوى " (26) ، وهكذا يظهر أنّ ثمة انفتاحا في دلالة الكلمة "مؤعد" ، ومرد ذلك إلى أنّ الصيغة "مفعِل" تحتل معاني صرفية متباينة ، وليس يخفى أنّ الله لم يخص معنى دون معنى ، وعلة ذلك التشديد على عقدِ المؤعد ، وتأكيدِه في زمانه ومكانه وحدوثه "المصدر" ، فهو الذي لا

يُخْلَفُ وَعَدَهُ رَسَلَهُ، وَقَدْ رَجَّحَ الْقُرْطُبِيُّ - مَعَ تَعْرِيجِهِ عَلَى اِحْتِمَالِهَا ثَلَاثَةَ مَعَانٍ - الْمَصْدَرِيَّةَ "الْوَعْدَ" (27)، وَاکْتَفَى الطَّبْرَسِيُّ بِدِلَالَتِهَا عَلَى الْمَكَانِ، "وَمَكَانًا" فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ بَدَلًا مَنْصُوبًا مِنْ "مَوْعِدًا" (28) .

وَقَدْ تُقْضَى الْعَوَارِضُ التَّصْرِيفِيَّةُ إِلَى انْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ، وَمَرَدَّ ذَلِكَ الْإِدْغَامُ، إِدْغَامُ الْمُثَلِّينَ، وَمِنْ أَمْتَلَةِ ذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ . تَبَارَكَ . "وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ" (29) .
مَوْضِعُ الْمُبَاحَثَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ الشَّرِيفُ "يُضَارُّ"؛ إِذْ إِنَّهَا بِنِيَّةٍ سَطْحِيَّةٍ مُحْتَمَلَةٌ ، وَقَدْ انْفَتَحَتْ دِلَالَتُهَا لَوْقُوعِ مَعْنِيَيْنِ تَحْتَهَا، وَهُمَا: "لَا يُضَارُّ، وَلَا يُضَارَرُّ"، وَلَكِنَّ الْعَارِضَ التَّصْرِيفِيَّ أَضَى إِلَى إِدْغَامِ الرَّاءِ مَعَ، فَاتَّحَدَتْ صِيغَةُ الْمَبْنِيِّ لِلْمَعْلُومِ مَعَ صِيغَةِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ، مَخْلَفَةً وَرَاءَهَا انْفِتَاحًا دِلَالِيًّا، وَوَجْهَ الْإِعْجَازِ هَهُنَا أَنَّ ثَمَّةَ نَهْيَيْنِ فِي صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ: نَهْيًا لِلْكَاتِبِ وَالشَّهِيدِ عَنِ الْإِحَاقِ الضَّرْرِ بغيرِهِمَا، كَتَرَكِ الشَّهَادَةِ أَوْ التَّحْرِيفِ، وَنَهْيًا عَنِ أَنْ يُضَارَّ الْكَاتِبُ وَالشَّهِيدُ، وَذَلِكَ أَلَّا يُعْطَى الْكَاتِبُ حَقُّهُ، أَوْ أَنْ يُحْمَلَ الشَّهِيدُ مَوْئِنَةَ الْمَجِيءِ مِنْ بَلَدٍ، أَوْ أَنْ يُعَنَّفَ (30)، وَيَسْنُدُ هَذَا؛ أَعْنِي مَعْنَى "مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: "وَلَا يُضَارَرُّ" (31)، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ - أَعْنِي مَعْنَى الْفَاعِلِيَّةِ - أَبِينُ عِنْدَ الطَّبْرَسِيِّ، (32)، كَلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي تَحْتَمَلُهَا صِيغَةُ وَاحِدَةٍ تَثِيرُ فِي النَفْسِ اسْتِحْسَانًا أَنْ الْكَشْفِ عَنِ الْمَعَانِي الْوَاقِعَةِ تَحْتَهَا، وَالْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ لَمْ يَخْصَّ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى فِي هَذَا النَّهْيِ: وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ"، بَلْ جَمَعَهُمَا مَعًا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

فِي الْمَسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ :

أَمَّا انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ الْوَاقِعُ فِي الْمَسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ فَمَوْضِعُهُ مَتَبَايِنَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ تَبَايُنُ الْقَوْلِ عَلَى مَرَجِعِ الضَّمِيرِ؛ وَذَلِكَ نَحْوَ قَوْلِهِ . تَبَارَكَ .: "وَمَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا" (33) : يَظْهَرُ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ أَنَّ ثَمَّ ضَمِيرًا فِي قَوْلِهِ "نَبْرَأَهَا"، وَقَدْ تَقَدَّمَ ثَلَاثَةُ مَرَّاجِعَ، وَهِيَ: الْمَصِيبَةُ، وَالْأَرْضُ، وَأَنْفُسُكُمْ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ قَوَاعِدَ الْمَطَابَقَةِ تَأْذُنُ بَعُودِ هَذَا

الضمير "الهاء" في "نبرأها" على هذه المراجع الثلاثة المتقدمة ،ليَعْقَبَ هذا انفتاح دِلاليّ مؤتلفٍ من ثلاثة أوجه (34):

أولها: أن الضمير "الهاء" عائدٌ على الأرض: من قبل أن نبرأ الأرض.

وثانيها: أن الضمير عائدٌ على المصيبة: من قبل أن نبرأ المصيبة .

وثالثها: أن الضمير عائدٌ على النفس: من قبل أن نبرأ النفس .

والمستصَفَى ممّا تقدّم أنّ تلكم المراجع لا تتدافع، بل هي مُتَقَبَلَةٌ في سياقها صالحةٌ، ووجه الإعجاز اللغويّ في هذا السياق الشريف هو انفتاح الدلالة في ثلاثِ شعبٍ دلاليةٍ، والمَقْصِدُ الدلاليّ المتعيّن هو التقريرُ بالتقدير، تقدير العزيز العليم قبل أن يبرأ الأرض، أو النفس، أو المصيبة؛ ذلك أنّ كلّ شيءٍ عنده بمقدارٍ محفوظٍ في لوحٍ محفوظٍ قبل أن يُوجَدَ الوجودُ، فهو الأوّل بلا بدايةٍ، والذي يسترعي الخاطرُ ههنا هو اشتمالُ ضميرٍ واحدٍ . وهو "الهاء" في "نبرأها" _ على هذه المراجع المتقدمة، ليعقبه تخلُّقٌ ثلاثة معانٍ تقضي إلى نفي المعنى بالمطلق، فالمصيبةُ التي تحلُّ بالخلق مكتوبةٌ عليهم، ومقدّرةٌ قبل أن يبرأ الله الأرض أو الخلق "أنفسكم" أو المصيبةَ نفسها!، ويمكنُ جدًّا أن ينضافَ مرجعٌ رابعٌ، وهو كلّ ما تقدّم (35)، تبارك الله أحسنُ الخالقين.

ومن مثلٍ ما تقدّم قولُ الحقّ . تنزّه . "وإن كنتم في ريبٍ ممّا نزلنا على عبدنا

فائتوا بسورةٍ من مثله " (36) .

الظاهرُ أنّ في كلمة "مثله" ضميراً متصلاً ذا ملامحٍ، وهي التذكيرُ والغيبةُ والإفرادُ، وقد تقدّمه مراجعٌ موافقةٌ لملامحه من حيثُ العددُ والجنسُ، وهذه المراجعُ هي: "ريب" ، و"ممّا نزلنا على عبدنا" "القرآن"، و"عبدنا"، وليس يخفى أنّ عودَ الضميرِ في "مثله" على المرجعِ الأوّلِ مُطَّرَحٌ؛ ذلك أنّه لا يصحُّ في الفهم، ولا يستقيمُ لفسادِ المعنى، ويبقى في قائمةِ المُحتملاتِ مرجعانِ اثنانِ، وهما: "القرآنُ"، و"عبدنا" (37)، والمعنى الكامنُ: فائتوا بسورةٍ من مثله: من مثلِ هذا القرآنِ. أو: فائتوا بسورةٍ من مثله: من مثلِ هذا النبيِّ "عبدنا"، والقرطبيُّ والطبرسيُّ يرجّحانِ عوده علماً للقرآنِ مع انتفاءِ تجافيهما على عوده على المرجعين (38).

والمُستصْفَى مِمَّا تَقَدَّمَ أَنفَا أَنْ ثَمَّةَ انْفِتَاحًا فِي الدَّلَالَةِ مُرَدُّهُ إِلَى تَبَايُنِ الْقَوْلِ عَلَى مَرَجِعِ الضَّمِيرِ ، وَأَنَّ هَذِينَ الْمَرَجِعِينَ مُتَقَبَّلَانِ يَجِيئَانِ مَجِيئًا صَالِحًا مُتَسَاوِقًا مَعَ مَعْنَى السِّيَاقِ الْكَلْبِيِّ ؛ إِذْ إِنَّهُمَا لَا يَتَدَافَعَانِ الْبَيِّنَةَ ، فَاللَّهُ الْعَلِيُّ يَتَحَدَّى الْمُشْرِكِينَ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ هَذَا التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ ، لِيَقَرَّرَ بِهَذَا التَّحَدِّيِ انْتِقَاءَ مُكْنَتِهِمْ عَلَى هَذَا ، وَقَدْ يَكُونُ مُرَادُهُ . تَجَلَّى فِي إِعْجَازِهِ . أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ رَجُلٍ مِثْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُتَضَافِرٌ وَ دِلَالَةُ السِّيَاقِ الْكَلْبِيَّةِ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ بِمُكْنَتِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَيَصَدِّقُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ . تَبَارَكَ . "قُلْ لَنْ يَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ... (39) . أَوْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا النَّبِيِّ الْمُتَقَرِّدِ الْأَمِيِّ الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ (40) ، وَوَجْهَ الْإِعْجَازِ الَّذِي يَثِيرُ فِي النَّفْسِ اسْتِحْسَانًا فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ هُوَ انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ الْمُتَمَثِّلِ فِي احْتِمَالِ مَعْنِيَيْنِ لَا يَتَدَافَعَانِ ، وَلَكِنْ ، قَدْ يَكُونُ تَرَدُّدُ مَرَجِعَيْنِ عَلَى ضَمِيرٍ وَاحِدٍ مَلْحَظًا فِيهِ تَفَاصِلٌ لَا تَوَاصِلٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا : "ذَهَبَ زَيْدٌ إِلَى عَمْرٍو لِأَنَّهُ مَرِيضٌ" . فَالظَّاهِرُ أَنَّ ثَمَّ ضَمِيرًا فِي قَوْلِنَا "لِأَنَّهُ" يَطَابِقُ فِي مَلَاحِظَةِ الْمَرَجِعِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَهَمَا "زَيْدٌ وَ عَمْرٌو" ، فَقَدْ يَكُونُ الْمُتَعَيِّنُ أَنَّ الْمَرِيضَ زَيْدٌ ، وَقَدْ يَكُونُ أَنَّهُ عَمْرٌو ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ التَّفَاصِلَ قَدْ تَجَلَّى فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمَصْنُوعَةِ لِيعْقِبَهُ إِشْكَالٌ يُؤَدِّنُ بِانْتِقَاءِ وَقُوفِنَا عَلَى الْمُتَعَيِّنِ مِنَ الْجُمْلَةِ عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ ، أَمَّا فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ الْمُتَقَدِّمِ بَيَانُهَا أَنفَا فَلَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ؛ ذَلِكَ أَنَّ إِذَا ارْتَضَيْنَا الْمَعْنَى الْأَوَّلَ : "فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ" ، فَإِنَّا نَقْفُ عَلَى مَعْنَى عَلَى وَجْهِ التَّعْيِينِ ، وَإِذَا نَحْنُ ارْتَضَيْنَا الْمَعْنَى الثَّانِيَةَ : "فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا النَّبِيِّ" فَإِنَّا نَقْفُ عَلَى مَعْنَى جَدِيدٍ أَيْضًا ، وَإِذَا نَحْنُ ارْتَضَيْنَا الْمَعْنِيَيْنِ مَعًا قَائِلِينَ بِانْفِتَاحِ الدَّلَالَةِ الْمُعْجَزِ فَإِنَّا لَنْ نَقْفَ عَلَى إِشْكَالٍ أَوْ تَدَاخُلٍ بَيْنَ الْمَعَانِي ، كَمَا فِي قَوْلِنَا : ذَهَبَ زَيْدٌ إِلَى عَمْرٍو لِأَنَّهُ مَرِيضٌ " ، بَلْ نَقْفُ عَلَى تَضَافِرِ مَعْنِيَيْنِ مُتَسَاوِقِينَ وَدِلَالَةِ السِّيَاقِ الْكَلْبِيَّةِ ، أَفَلَا يَفْضِي هَذَا بِنَا إِلَى اسْتِرْفَادِ قَوْلِ أَحَدِهِمْ ثَانِيَةً : "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ" .

ومن أمثلة انفتاح الدلالة الواقع في المستوى التركيبي قوله . تنزهه . : "وَأَنْ اتَّبِعْ
 مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" (41) ، ونحن نُعربُ "حنيفاً" في سياقها الشريفِ ذاكِ حالاً ،
 والانفتاحُ ههنا باعْثُهُ تعيينُ صاحبِ الحالِ ؛ إذ إنه يتردّد بين الضميرِ المستترِ في
 "اتَّبِعْ" و"إبراهيم" (42) ، وليس يخفى أنّ لهذا الانفتاحِ الدلاليّ علّةً ، وهي التشديدُ
 على مبدأ الحنيفيّة ، فإذا كانَ صاحبُ الحالِ "إبراهيم" أو "محمّداً" -صلى الله عليه
 وسلّم- فالغرضُ واحدٌ، وهو الحنيفيّة بصرفِ النظرِ عن صاحبِ الحالِ ، ولكن هذا
 الانفتاحُ الدلاليّ قد يكونُ ذا صبغةٍ سلبيةٍ في سياقٍ آخرَ ، فقد يعرضُ على المرءِ
 إشكالاً مردّه إلى صاحبِ الحالِ ؛ وذلك نحو "قابلُ زيدٌ عمرًا ضاحكًا" : والإشكالُ واقعٌ
 ههنا في تعيينِ صاحبِ الحالِ ؛ إذ إنّها تتردّد في عودها بين اثنين ، وهما زيدٌ
 وعمرو ، ولعلّ هذا الإشكالُ مُنتفٍ . في دلالاته الكلّيّة . عن الآيةِ الشريفةِ ، بل إنّ
 الانفتاحَ ذاكِ يثيرُ في النفسِ استحساناً .

وقد يتجلّى انفتاحُ الدلالةِ في المستوى التركيبيّ في التقديمِ والتأخيرِ ، ومن ذلك
 : "إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" (43) ، فقد يكونُ المعنى -كما هو جليٌّ من
 ظاهرِ اللفظِ . أنّ لكلِّ قومٍ هاديًا يختصّون به ، وليس يخفى أنّ هذا المعنى مُقتنصٌ
 من الألفاظِ باعتبارها في أماكنها الأولى :

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

ويكونُ "هادٍ" مبتدأً تقدّم خبره ، وهو : "لكلِّ قومٍ" ، وقد تمّ الكلامُ عندَ "منذِرٍ" ، والواو
 تعطف . في هذا السياقِ -جملةً على جملةٍ ، وقد تنفتحُ الدلالةُ نحو معنى آخرَ مردّه
 إلى التقديمِ والتأخيرِ ؛ وذلك نحو :

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَهَادٍ لِكُلِّ قَوْمٍ

ويصدّقُ هذا الانفتاحُ الدلاليّ قولُ الحقِّ . تنزهه . "وما أرسلناك إلا كافةً للناسِ
 " (44) ، وليس يخفى أنّ اعتبارَ "هادٍ" معطوفةً على "منذرٍ" يؤذن بالقولِ إنّ الكلامَ لم
 يتمّ عندَ قوله "منذرٍ" ، وإنّ الواو "تعطفُ كلمةً على كلمةٍ ، وهما : أنتَ منذرٌ وهادٍ
 (45) ، ولا شيءٌ يدفعُ هذا الوجهَ الدلاليّ المُعجب .

وَمِنْ مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: "ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا" (46) . إذا
 أَنْعَمَ المرءُ النَّظَرَ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ فَإِنَّهُ سَيَقْفُ وَجَاهَ مَعْنِيَيْنِ: أَوَّلُهُمَا أَنْ تَكُونَ "أَمْنَةً"
 مَفْعُولًا بِهِ مَنْصُوبًا: أَنْزَلَ أَمْنَةً، ثُمَّ تَأْتِي كَلِمَةُ "نُعَاسًا" لِتَفْسَّرَ هَيْئَةً هَذِهِ "الْأَمْنَةَ"، فَتَكُونَ
 بَدَلًا مِنْهَا: أَمْنَةً نُعَاسًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْإِعْرَابَ مُتَقَبَّلٌ لَا يُدْفَعُ، وَلَكِنْ وَجْهَ
 الْإِعْجَازِ الْمُتَمَثِّلِ فِي تَغْيِيرِ أَمَاكِنِ الْكَلِمَاتِ قَدْ يَفْضِي إِلَى مَعْنَى جَدِيدٍ، وَيَكُونُ إِعْرَابُ
 "نُعَاسًا" مَفْعُولًا بِهِ، ثُمَّ تَجِيءُ "أَمْنَةً" لِتَجَلِّيَ السَّبَبِ، أَوْ لِتَجَلِّيَ الْحَالِ، فَتَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ
 مُتَقَدِّمًا، أَوْ حَالًا، وَكَأَنَّهَا جَوَابٌ عَنِ السُّؤَالِ: لِمَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ نُعَاسًا؟ فَيَكُونُ
 لِلْأَمْنَةِ أَوْ لِلْأَمْنِ، وَوَجْهَ الْإِعْجَازِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الشَّرِيفِ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ قَدْ
 احْتَمَلَتْ غَيْرَ مَعْنَى نَحْوِيٍّ، فَالْكَلِمَةُ "أَمْنَةً" تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ، أَوْ مَفْعُولًا لَهُ،
 "وَنُعَاسًا" تَتَرَدَّدُ بَيْنَ كَوْنِهَا بَدَلًا، أَوْ مَفْعُولًا بِهِ (47).

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْإِنْفِتَاحِ الدَّلَالِيِّ الْآتِي مِنْ تَعَدُّدِ الْمَعَانِي النَّحْوِيَّةِ قَوْلُهُ - تَبَارَكَ -
 "وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ" (48)، وَالظَّاهِرُ أَنَّ "غَيْرَ" تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ فِي
 سِيَاقِهَا الشَّرِيفِ:

مصدرًا: وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ إِزْلَافًا غَيْرَ بَعِيدٍ .

أَوْ ظَرْفًا: وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ غَيْرَ بَعِيدٍ.

أَوْ حَالًا: وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ الْإِزْلَافَ فِي حَالِ كَوْنِهِ غَيْرَ بَعِيدٍ (49) . إِخَالُ أَنْ
 انْفِتَاحَ الدَّلَالَةِ الَّذِي يَحْتَمِلُهُ إِعْرَابُ "غَيْرَ" فِي سِيَاقِهَا يَتَّقَى وَدَلَالَةَ السِّيَاقِ الْكَلِمِيَّةِ،
 فَالْإِزْلَافُ غَيْرُ بَعِيدٍ لَا فِي حَالِهِ، وَلَا فِي زَمْنِهِ، وَلَا فِي تَأَكِيدِهِ "المصدر"، وَاللَّافُ
 لِلخَاطِرِ أَنَّ تَلْكَ الْمَعَانِيَ النَّحْوِيَّةَ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا كَلِمَةُ "غَيْرَ". وَهِيَ الْمَصْدَرِيَّةُ وَالظَّرْفِيَّةُ
 وَالْحَالِيَّةُ . مُتَبَايِنَةٌ، وَلَكِنَّهَا كُلُّهَا تَلْتَقِي مَعًا لِتُجْمَعَ عَلَى تَأَكِيدِ إِزْلَافِ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ
 ، وَلَيْسَ بَاعِثٌ هَذَا الْإِنْفِتَاحِ الدَّلَالِيِّ اعْتِبَاطِيَّةً عَرْضِيَّةً، فَهُوَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي قَدَّرَ كُلَّ
 شَيْءٍ فَأَحْسَنَ .

وَقَدْ يَتَجَلَّى انْفِتَاحُ الدَّلَالَةِ فِي الْمَسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْإِسْمِ؛
 وَذَلِكَ نَحْوُ: ضَرْبِ عَلِيٍّ، أَوْ قَتْلِ الصَّيَادِينَ (50)، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ
 الْبِنْيَوِيَّ بَاعِثٌ مِنْ بَوَاعِثِ الْوَلُوجِ فِي تَعَدُّدِ الْمَعَانِي وَالْإِحْتِمَالِ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى فِي
 "ضَرْبِ عَلِيٍّ" أَنَّ عَلِيًّا يَضْرِبُ النَّاسَ، وَقَدْ يَكُونُ أَنَّ عَلِيًّا هُوَ الْمَضْرُوبُ، كُلُّ ذَلِكَ

باعثه استواءً بنيتين عميقتين في ثوبٍ بنيةٍ سطحيةٍ تحتلُ ذينك المعنيين ، وشبيهةً بهذا الاحتمال المتقدّم الاحتمال المركوز في قوله . عزّ : "كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ" (51) ، فقد قيل إنّ هذا التركيب متردّدٌ بينَ الفاعليةِ والمفعوليةِ ، فإذا كان المصدرُ "عبادة" مُضافاً إلى المفعولِ ، فالتقديرُ : "ستكفُرُ الأصنامُ بعبادتهم" ، وإن كانَ مضافاً إلى الفاعلِ فالمعنى المتعيّنُ من هذا التركيبِ الشريفِ : سيكفُرُ المشركون بعبادتهم الأصنامَ ، والذي يسترعي الخاطرَ ههنا أنّ الإشكالَ الذي نجدُه في قولنا : صَرَبَ عَلِيٌّ ، أو قَتَلَ الصيادين ، أو ما هو مضارعٌ لذلك ، غيرُ قارٍ في هذه الآيةِ ، بل إنّهُ مطلبٌ ذو سُهْمَةٍ في تصويرِ حالِ المشركين في الآخرةِ ، فهم أهلُ ندامةٍ وحسرةٍ ، ولذا سيكفرون بكلِّ ما عبده من دونِ الله ، وقد يكونُ المعنى : أن كلَّ ما عبُد من دونِ الله سيتحللُ من عابديه ، ويصدّقُ هذين المعنيين المتجليين في بنيةٍ واحدةٍ قوله تعالى . في سياقٍ آخر . "فاليومَ يكفُرُ بعضُكم ببعضٍ" (52).

في المستوى المعجمي:

وليس ملاحظُ انفتاحِ الدلالةِ المُعْجِزِ مقصوراً على المستوى الصوتي ، أو الصرفي ، أو التركيبي ، بل إنّهُ يتعدّى ذلكم المتقدّم إلى المستوى المعجمي ، إلى حدودِ الكلمةِ المفردةِ القائمةِ برأسها ، ومن أجلِ بواعثه في هذا المستوى "الاشتراكُ اللفظي" ، كأن يقع تحتَ الكلمةِ الواحدةِ معنيان أو أكثر ، أو أن تكونَ الكلمةُ نفسُها ذاتَ دلالةٍ عائمةٍ تتسعُ لمُدْخَلاتٍ متنوّعةٍ ، فتفتتحُ دلالتهُ لمقتضى أرادتهِ الحقّ . جلّ . ، ومن الأمثلةِ التي تُخرجُ ما أنا خائضٌ فيه من مضمارِ التنظيرِ إلى مضمارِ التطبيقِ قوله - تنزهه . "لا يَرْقُبُونَ في مؤمنٍ إلّا ولا ذمّةً" (53) : لقد تمثّل انفتاحُ الدلالةِ الآتي من المعجم في قوله : "إلّا" ، فهي كلمةٌ تنتسبُ إلى المشتركِ اللفظيِّ بنسبِ حميمٍ ؛ إذ إنّهُ يقعُ تحتها غيرُ معنى ، ومن ذلكم أنّها تعني "الله" أو "العهد" أو "الحلف" أو "القربة" أو "الجوار" (54) ، ووجهُ الإعجازِ المُعْجِزِ في هذا السياقِ الشريفِ هو اشتمالُ "الإلّ" على معانٍ متعدّدةٍ ، وهذه هي حالُ المشركين الذين لا يَصِيرُهُم عهدٌ أو حلفٌ أو قربةٌ أو ، وانفتاحُ الدلالةِ هذا فيه إلماحةٌ إلى نفي المعنى بكليّتهِ ، والملحظُ

اللطيف في هذا أنّ كلمةً واحدةً قامتْ مقامَ كلماتٍ متعدّدةٍ مُحتمِلةٍ ،وقد تنبّه الطبريّ بثاقبِ بصره ،وبعيدِ تأمله إلى هذه الإلماحةِ المُعجزةِ فقال : "الإلّ :اسم يشتملُ على معانٍ ثلاثةٍ :وهي العهدُ والعقدُ ،والحلفُ والقرايةُ ،وهو أيضا بمعنى الله ،فإذا كانتِ الكلمةُ تشملُ هذه المعاني الثلاثةَ ،ولم يكن اللهُ خصّ من ذلك معنى دونَ معنى . فالصوابُ أنْ يعمَّ ذلك كما عمَّ بها جلّ ثناؤه معانيها الثلاثةَ فيقال : لا يرقبونَ في مؤمنٍ :الله ولا قرابةً ولا عهداً ولا ميثاقاً"(56).

ومن الأمثلة التي تجلّي مطلب استشرافِ الانفتاحِ الدلاليّ الآتي من المعجم قوله . تبارك - "انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا" (57) ، ووجهُ الانفتاحِ في هذا السياقِ الشريفِ قوله "خفافا وثقالا"،وليس يخفى على ذي نُهيّةٍ أنّ هاتين الكلمتين يكتنفهُما إجمالٌ ودلالةٌ عائمةٌ لا تقفُ بنا على معنى على وجه الإحكام ،ولذلك قيل : "خفافًا" من السلاحِ ،و"ثقالا" :مستكثرينِ منه، أو "خفافًا" من الأثقالِ ، و"ثقالا" بها، أو "خفافًا" من العيالِ ، و"ثقالا" بهم ،أو "خفافًا" من الأتباعِ ، و"ثقالًا" بهم ، أو "خفافًا" إلى المبارزةِ ، و"ثقالا" في المصابرةِ ، أو "خفافًا" بالمسارعةِ والمبادرةِ ، و"ثقالًا" بعد التروّي والتفكيرِ ، أو "خفافًا" مهازيلِ ، و"ثقالًا" سمانًا ، أو "خفافًا" :شبابًا ،و"ثقالا" " شيوخًا ، أو "خفافًا" رُكبانًا ، و"ثقالًا" رجالًا ، أو "خفافًا" إلى الطاعةِ" ، و"ثقالا" عن المخالفةِ(58) ، والظاهرُ أنّ الحقَّ تنزّه في علاه_ قصدَ هذا الانفتاحِ الدلاليّ المعجبِ ؛ ذلك أنّ المعوّلَ عليه في الأمرِ الجهادُ الجهادُ ،وقد أومأتْ هاتان الكلمتان بإجمالِهما وعمومِ دلالتيهما إلى أنّه مَطْلَبٌ له خَطَرُهُ ،وعِلَّةٌ انتفاءِ خصوصيّةِ معنى على وجهِ التعيينِ هي العموميّةُ التي احتملتها هذه الآيةُ ، ليكونَ فرضًا على كلِّ مقتدرٍ ، وحقّةً على كلِّ مقصّرٍ ومتخاذلٍ ، والذي ينمي مَلَمَحَ الإعجابِ في النفسِ هو أنّ هاتين الكلمتين تقومان مقامَ جملٍ طويلةٍ ، وشرحٍ مطنّبٍ ،والحاصلُ أنّ الحقَّ _سبحانه_ جمعَ هذه المعاني في كلمتين اثنتين تحضيضًا وفرضًا وحقّةً_ كما تقدّمَ آنفا_ ، ومُستصَفَى القولِ فيها - كما يرى القرطبيُّ - " أنّ النَّاسَ أَمَرُوا جَمَلَةً ، أَي انْفَرُوا خَفَّتْ عَلَيْكُمُ الْحَرَكَةُ أَوْ ثَقَلَتْ"(58) ، " لأنّ أحوالَ الإنسانِ لا تخلو مِن أحدِ هذه الأشياءِ"(59) ، ويصدّق هذا المعنى قوله . جلّ . في آيةٍ أخرى : "وقاتلوا المشركينَ كافّةً"(60) ، ومن هنا نعوذُ

ثانيةً وثالثةً إلى انفتاحِ الدلالةِ الذي يشعُّ بمعانٍ متعدّدةٍ تتفقُ ودلالةِ السياقِ الكليّةِ بما فيها من أمرٍ أو نهْيٍ أو توجيهٍ، تبارك اللهُ أحسنُ الخالقين .

ومن مثلٍ ما تقدّم قوله: "وسيّداً وحَصُورًا" (61)

وكما انفتحتُ دلالةُ الآيةِ الفائتةِ في قولِ الحقِّ: "خفافا وثقالا" انفتحتُ دلالةُ هذه الآيةِ الشريفةِ في قوله: "حَصُورًا"؛ ذلك أنّها تحتلُّ معانيَ متباينةً، والظاهرُ أنّ الباعثَ على تعدّدِ المعاني الواقعة تحت "حَصُورًا" في سياقها هو أنّها تدلّ على العموميّةِ لعلّةِ أرواها الحقّ_تتّره . فأصلُ "الحَصْر" الحبسُ والمنعُ (62)، ولَمّا كانَ الحبسُ يقع على أشياءٍ متباينةٍ في العالمِ الخارجيِّ، كحبسِ الشهوةِ، أو السرِّ، أو النفسِ . لَمّا كان ذلك كذلك . أذنْ بانفتاحِ دلالتها وتعدّدِ وجوهِ القولِ عليها ، فقول "الحَصُور" هو الذي لا يقربُ النساءِ إمّا من العتّةِ ، وإمّا من العقّةِ والاجتهادِ في إزالةِ الشهوةِ مع القدرةِ ، وهذا أصحُّ الأقوالِ عند القرطبيِّ ؛ ذلك أنّه ثناءٌ عليه، و"الثناءُ يكونُ عن الفعلِ المُكتسبِ دونَ الجبلةِ في الغالب" (63)، وقيل الحَصُورُ هو الذي لا يولدُ له ، أو الذي لا يخرجُ مع النّدَامى ، أو الذي لا يُخرجُ سرًّا أبدًا (64) ، وكلّ ذلك مُحتملٌ يجيء مَجيبًا صالحًا، ووجهُ الإعجازِ ههنا هو انفتاحُ دلالتها، وانتفاءُ اقتصارها على معنى على وجهِ الإحكامِ، كلّ ذلك فيه تلميحٌ بل تصريحٌ بشرفِ هذا النبيِّ الحَصُورِ الذي لا يُخرجُ سرًّا ، أو الذي لا يخرجُ مع النّدَامى، أو الذي اجتهدَ في إزالةِ الشهوةِ وحصرها تعفُّفاً، وليس يخفى ثانيةً وثالثةً أنّ كلمةً واحدةً ، وهي "حَصُورًا" في هذا السياقِ الشريفِ، حمالةٌ لأوجهٍ متقبّلةٍ في دلالتها متضافرةً ، وهي من وجهةٍ أخرى ، تغني عن جملٍ كثيرةٍ، وقولٍ بسيطٍ .

والحقُّ أنّ هذا الملحظَ له حضورٌ جليٌّ في التنزيلِ العزيزِ، وحسبي في مُختتمِ التعرّيجِ عليه الإشارةُ إلى قولِ ابنِ قتيبةٍ في قوله _تعالى_ متلمّسًا هذا الانفتاحَ الدلاليَّ المعجِبَ ، مُلمحًا بل مُصرّحًا بأنّ دلالةَ "ينزفون" تتسعُ لمُدخَلاتٍ متنوّعةٍ: "وتبيّن قولهُ في وصفِ خمرِ أهلِ الجنّةِ: " لا يُصدّعونَ عنها ولا ينزفونَ "كيفَ نفى عنها بهذين

اللفظين جميع عيوبِ الخمرِ، وجمعَ بقوله: "ولا ينفون" عدمَ العقلِ، وذهابَ المالِ، ونفادَ الشرابِ" (65).

احتراَسٌ وتقابلٌ :

عَودا على بدءِ ، وأرجو أن يكونَ العَودُ أحمدَ ، فقدءَ تقدّم احتراَسٌ مضمونهُ أنّ الانفتاحَ الدلاليّ ليس مُلقى على عَواهنه يأتي في كلِّ سياقٍ قرآنيّ شريفٍ، بل الأمرُ بالصدِّ ؛ ذلك أنّ المتبصّرَ قد يقف وجاهَ آياتِ كريماتٍ يتجلّى فيها انغلاقُ الدلالةِ واقتصارُها على وجهةٍ معنويّةٍ واحدةٍ ، ومن ذلك، في المستوى الصوتيِّ، المفاصلِ الصوتيّةِ، فالمُحتكَمُ الأوّلُ هو المعنى ، فقد يحدثُ في كثيرٍ من المواضع أن يفضيَ وقفٌ عارضٌ إلى الولوجِ في الخطأَ وقلبِ المعنى من بَوابةِ عريضةٍ ؛ وذلك نحو قوله - تنزّه - " إنّما يستجيبُ الذينَ يسمعونَ ، والموتى يبعثُهُم اللهُ، ثمّ إليه يُرجعونَ " (66): لعلّه من الخطأ المبدّل للمعنى المراد أن يظهرَ الكلامُ متواشجا غيرَ متفاصلٍ ؛ ذلك أن اطراحَ المفصلِ يفضي إلى دلالةٍ غيرِ مرادةٍ ، وهنا يأتي ملحظُ "انغلاقِ الدلالةِ" على وجهِ الأحكامِ ، ولذا يتعيّنُ على القارئِ أن يتلبّثَ في سكتةٍ خفيفةٍ لفسخِ نسيجِ التركيبِ المؤننِ بتعيينِ المعنى المرادِ (67)، وهو: "إنّما يستجيبُ الذينَ يسمعونَ Δ والموتى يبعثُهُم اللهُ" ، وبهذا المفصلِ يُرفَعُ عن خاطرِ الأوّلِ وهمٌ قد يجعلُهُ يَؤهُمُ إذ يظنُّ أنّ "الموتى" اسمٌ معطوفٌ على "الذينَ يستجيبونَ، وأتى لهم ذلك ؟

ومن مثل ما تقدّم قولُ الحقِّ: "فَلا يحزُنكَ قولُهُم إنّنا نعلمُ ما يُسرّونَ وما يُعلنونَ" (68) ، ذلك أنّه ربّما قفزَ إلى خاطرٍ وهمٌ مؤداه أنّ ما بعدَ "قولُهُم" محكيٌّ بالقولِ، وليس ذلك كذلك البتّةَ، لأنّه ليس مقولا لهم (69) ، ولذا يجبُ على القارئِ أن يقفَ وقفاً تامّاً عندَ قولِ الحقِّ . تنزّه . "فَلا يحزُنكَ قولُهُم Δ إنّنا نعلمُ ما يُسرّونَ" حتّى تتغلّقَ الدلالةُ ، فلا يُظنُّ أنّ "إنّنا نعلمُ ما يُسرّونَ وما يُعلنونَ" هي من قولِهِم .

وانغلاقُ الدلالةِ واقعٌ في المستوى الصرفيّ أيضاً ، والمعولُّ عليه هو المعنى، فليس يصحُّ أن يكونَ تناوبُ الصيغِ سائرا على هوى النفسِ .وقد يتجلّى الإعجازُ

المُعْجَبُ في انغلاقِ الدلالةِ كما تجلّى في انفتاحِها ، ومِن ذلك قولُ الحقِّ . تنزّهـ
 "فلعلّك تاركٌ بعضَ ما يُوحى إليك وضائقٌ به صدرك" (70) : معلومٌ أنّ اسمَ الفاعلِ
 يقتضي الحدوثَ والزوالَ ، أمّا الصفةُ المشبّهةُ فوضّعها على الإطلاقِ الذي لا
 يقتضي الحدوثَ ، بل الاستمرارَ ، ولذلك نقولُ في "حَسَنَ" . وهي صفةٌ مشبّهةٌ حاسِنٌ
 الآن أوغدا(71) ، ويُصدّقُ هذا قولُهُ -تعالى- : "وضائقٌ به صدرك" ، ووجهُ الإعجازِ
 المُعْجَبِ في هذه البنيةِ الصرفيّةِ أنّها جاءتْ على وزنِ اسمِ فاعلٍ : "ضائقٌ":
 فاعلٌ" ، ولم يقل . تبارك . : "ضَيِّقُ به صدرك" ؛ ذلك أنّ "ضَيِّقُ" صفةٌ مشبّهةٌ تقتضي
 اللزومَ والثبوتَ ، وحاشَ لله أنْ ينعَتَ رسولَهُ بهذا النعتِ (72) ، بل هو الرحيمُ الودودُ
 الذي قال الحقُّ في حقِّه : "ولو كنثُ فظاً غليظاً القلبِ لانفصوا مِن حولك" (73) ،
 حقّاً أنّ انغلاقَ الدلالةِ وتوجيهها وجهةً واحدةً ذو سُهْمَةٍ في بيانِ الإعجازِ .

ومما يلحقُ بركبِ ما تقدّمَ أنّما قولُهُ : "وهو أهونٌ عليه" (74) : معلومٌ أنّ
 الصيغةَ الصرفيّةَ "أفعل" قد تكونُ على مَحْمَلِ التفضيلِ ؛ وذلك نحو : محمدٌ أذكى من
 سعيدٍ ، وقد تكونُ صفةً مشبّهةً تقتضي اللزومَ والثبوتَ ؛ وذلك نحو : أعورٌ وأعمى ،
 ولكنْ ، ليس يصحُّ في الفهمِ البتّةُ أنّ تكونَ "أهونٌ" في قوله . تعالى . "وهو أهونٌ
 عليه" اسمَ تفضيلٍ ؛ إذ إنّهُ ليس ثمةَ شيءٍ أهونٌ على الله من شيءٍ . تنزّه وتعالى
 علواً كبيراً ، ولذلك وجبَ . وفي الوجوبِ جزمٌ . أنّ يُطرَحَ الظنُّ بانفتاحِ الدلالةِ ، أو
 احتمالِها ، أو عدّ "أهونٌ" اسمَ تفضيلٍ ، بل يُفاءُ في هذا السياقِ إلى مَلْحَظِ انغلاقِ
 الدلالةِ " ، لتكونَ "أهونٌ" في ذلكمَ السياقِ الشريفِ صفةً مشبّهةً تقتضي الثبوتَ ، وهي
 بمعنى : "هيّنٌ عليه" (75) .

وقد يتجلّى ملحظُ انغلاقِ الدلالةِ في المستوى التركيبِيّ ، ومِن ذلك ما يَرِدُ على
 المتبصّرِ في "التقديمِ والتأخيرِ" ، والحقُّ أنّهُ لا يستقيمُ أنّ يُقالَ إنّ كلّ تقديمٍ وتأخيرٍ
 يكتنفهُ انفتاحٌ دلاليّ ، فقد يكونُ الأمرُ بالضدِّ ؛ ذلك أنّ تقديمَ كلمةٍ ، وتأخيرَ أخرى ،
 باعثٌ من بواعثِ حصرِ المعنى وتعيينه على الهيئةِ التي جاءَ عليها نظمُ الكلمِ ،
 ولعلّ هذا الذي أنا خائضٌ فيه يقوّدني إلى نظرِ الجُرْجانيِّ الثاقبِ القائلِ بأنّه "إذا
 وجبَ لمعنى أن يكونَ أولاً في النفسِ وجبَ للفظِ الدالُّ عليه أن يكونَ مثلهُ أولاً في
 النطقِ" (76) ، ومِن أمثلةِ انغلاقِ الدلالةِ وتوجيهها وجهةً واحدةً قولُهُ -تعالى- :

"أَفْصَافُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا" (77) ، فهذا ردُّ على المشركين، وتكذيبٌ لهم ،والملاحظُ أنَّ الفعلَ "أصفاكم" تقدّم على الفاعلِ "رَبُّكُمْ" ، وفي هذا نُكْتةٌ بيانيّةٌ دلّلتها فيها لمحّةٌ إعجازٍ مُعجِبةٌ، ومضمونها أنّ هذا الاستفهامَ الاستتكريّ كامنٌ في الفعلِ مِنْ أصلِهِ ،ولو قَدّمَ الحكيمُ الاسمَ "رَبُّكُمْ" لَصَارَ الإنكارُ في الفاعلِ (78) ، وحاشَ لله أن يكونَ ذلك ،وشبيهةٌ بهذا قولنا: "أَنْتَ قَلْتَ هَذَا الشَّعْرَ" ،فالسائلُ المُسْتَهْجِنُ يُنكِرُ أن يكونَ المخاطَبُ هو القائلُ ،ولكنّه لا ينكِرُ الشَّعْرَ ،واللهُ تبارك . ينكِرُ فعلَ "الاصطفاء" على وجهِ التحديدِ ،ولو قُدّمَ الاسمُ "رَبُّكُمْ" لَصَارَ ينكِرُ الفاعلَ ، وهو "رَبُّكُمْ" ، ومعنى هذا أنّ ثَمّةَ فاعلاً آخرَ أذنَ بذلكم الاصطفاءِ ، وهذا ممّا لا يجوزُ في مقامِ الحقِّ -تعالى علواً كبيراً- ،ولكنّ المرادَ إنكارَ كونِ الفعلِ حاصلًا مِنْ أصلِهِ.

عَلَّةُ الْعَلَّةِ:

وبعدُ ، فالذي تقدّمَ قَبْلًا حديثٌ مضمونه "انفتاحُ الدلالة" ، وقد بيّنتُ علتهُ ومواضعه ،ويبقى حقًا عليّ ،استكمالاً لمستلزماتِ البحثِ ، أن أعرِّجَ عَقَبَ هذا المتقدِّمِ على عِلَّةِ الْعَلَّةِ ،ولعلَّ أَوْلَهَا أَنَّهَا وَجْهٌ مِنْ وجوهِ الإعجازِ الخالدِ المُفضي إلى التقريرِ: "وما هو بقولِ بشرٍ" ، فقد تبيّنَ أنّ كلمةً واحدةً تُغني عن جُمْلٍ تَبَسُّطُ في القولِ وتطوّلُ ، وأنّ تركيبًا بنويًا واحدًا يقعُ تحتَه معنيان أو معانٍ لمقتضى أرادهِ الحقِّ ، وأنّ صيغةً صرفيّةً واحدةً تحتلُّ معانيَ صرفيّةً متباينةً ،وأنّ المفاصلَ الصوتيّةَ تعملُ على انفساخِ نسيجِ التركيبِ لتعيينِ المعانيِ النحويّةِ ، وأنّ تباينَ القولِ على مواضعها باعثٌ مِنْ بواعثِ انفتاحِ الدلالةِ وتعدّدِ المعاني.

مِنْ وَجْهَةٍ ثَانِيَةٍ ،إِخَالٌ أَنَّهُ يَنْضَافُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ أَنْفَا عِلَّةً ثَانِيَةً تَأْذُنُ بِهَذَا الانفتاحِ الدلاليِّ ؛ إذ إنّ انفتاحِ الدلالةِ قد يُفضي في بعضِ مُثَلِّهِ إلى قيامِ أحكامٍ فقهيّةٍ تتضمَّنُ آيَةً واحدةً ، وهذا مِنْ رحمةِ الله العظيمِ بعباده ،ومِنْ ذلك قولُه -تعالى -:"أَوْ لَامِسْتُمُ النِّسَاءَ" (79) ، فانفتاحُ الدلالةِ آتٍ مِنْ التردّدِ في اقتناصِ المتعَيِّنِ مِنْ

"اللمس" ، فقال فريق من الفقهاء إن لمسها لا ينقض الوضوء ، وذهبت ثلثة أخرى منهم إلى أن لمس المرأة التي ليست بمحرمة ينقض الوضوء ؛ إذ إنَّهم فسروا اللمس بلمس البشرة (80) . ومن مثل ما تقدّم قوله . تبارك . : "يا أيها الذين آمنوا إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ" (81) ، والظاهر من هذا السياق الشريف أن المسح ركن من أركان الوضوء ، ولكن الاختلاف الفقهي واقع في مقدار المسح المتعين ، والظاهر أن هذا الاختلاف الفقهي قائم في أصله على اختلاف لغوي ؛ ذلك أن ثم انفتاحاً في دلالة الآية الكريمة ، فقد قيل إن الباء زائدة ، والمعنى المتحصّل : "فامسحوا رؤوسكم" ، ومثل هذا قوله . تنزهه . "لست عليكم بشهيد" أي : شهيداً ، وقد جنح آخرون إلى عدّها أصلية معناها التبويض ، والمعنى : "بعض رؤوسكم" (82) ، والحق أن أمثلة تعدد الأحكام الفقهية الآتية من انفتاح الدلالة كثيرة ، والتنزيل بها مستفيض ، وهي . من وجهة أخر تخفيف من ربنا ورحمة .

من وجهة ثالثة ، قد يكون في انفتاح الدلالة تأكيد وتعميم على أمر بكلّيته ، وقد تقدّم قبلاً أمثلة متنوّعة من مستويات متباينة تسند هذا الذي أنا خائض فيه ؛ وذلك نحو دلالة "الحصر" أو "خفاً وثقالاً" أو "يضار" ، وليس يستقيم في الفهم أن يذهب الخاطر إلى أن هذه الأمثلة هكذا جاءت واستوى أمرها ؛ إذ إنّها ليست من كلام البشر ، بل من ربّ البشر الذي عنده كل شيء بمقدار ، ولذا قد يتعيّن من هذا الانفتاح الدلالي تأكيد لما أراده الحق ، أو نفي لأمر ما ، واشتمال لمعان متنوّعة لم يخصّ الله منها معنى دون معنى ، ويبقى هذا الملحظ المعجب مفضياً إلى ذهاب الخاطر إلى معان متنوّعة تتفق في دلالتها ودلالة السياق الكلية .

وبعد ، فهذا يكثر إن تتبّعته ، وقد أوردت أمثلة تنبّه على الغرض الذي قصدته ، وما هو إلا نزر يسير من مجموع متكاثر يؤذن بالتقرير : إن له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر ، تبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم ، حجة لي لا علي يوم العرض على وجهك الكريم .

هوامش البحث:

(1) انظر تعريف المفصل :

Robins,R.H.,General Linguistics, Longman, New York ,
1989,p145

باي ،ماريو،أسس علم اللغة ،ترجمة أحمد مختار عمر ، جامعة طرابلس، طرابلس،
1973م، 95 .

(2)الزركشي ،بدر الدين محمد ،البرهان في علوم القرآن ،تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ،1987م، 342/1.

(3)القسطلاني ، شهاب الدين، لطائف الإشارات لفنون القراءات ،تحقيق عامر
السيد عثمان وعبد الصبور شاهين ،لجنة إحياء التراث الإسلامي،
القاهرة،1972م،1/249.ومن أقسام الوقف :التام والكافي والحسن والقبیح ، انظر:
ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن قاسم ،إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز
وجل ، تحقيق محيي الدين رمضان ، ط1 ،مجمع اللغة العربية ، دمشق، 1971م
،149/1.

(4)الآية (آل عمران ،64).

(5) انظر ما قيل فيها :ابن الأنباري ، البيان في غريب إعراب القرآن ،تحقيق طه عبد
الحميد طه ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ،1980م، 1/207، العكبري ، التبيان
في إعراب القرآن ،تحقيق علي البجاوي ،ط2، دار الجيل ، بيروت ، 1987م
،269/1.

(6)الآية (الأنعام 151).

(7)أشار إلى هذين المعنيين ابن الأنباري،البيان ،349/1، و
العكبري،التبيان،2/548،وأبو حيان ،تفسير البحر المحيط ،تحقيق عادل عبد
الموجود وآخرين ، ط1الكتب العلمية ،بيروت ،1993م، 3/251،وقد ضعف وجه
النصب على الإغراء، ورجح الفراء هذا الوجه ، انظر :معاني القرآن، تحقيق أحمد
نجاتي ،ومحمد النجار ،الدار المصرية ،القاهرة ،1955م ،1/364.

(8) لبسط القول في ظاهرة التنغيم انظر :

Singh,S, Phonetics : Principles and Practise, University of Park Press,1982. p.187.

وقد عُدَّ مدخلا لرفع الغموض النحوي ،انظر :

Katamba, F, An Introduction to Phonology, Longman, New York, 1989, p244.

(9) الآية(المسد،2).

(10) انظر : النحاس ، أبو جعفر أحمد بن محمد ،إعراب القرآن ، تحقيق زهير زاهد ،ط3، عالم الكتب ،ومكتبة النهضة العربية ،بيروت ،1988م 305/5، ومكي بن أبي طالب ،مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن ،وزارة الإعلام، بغداد، 1975م 851/2، وابن هشام، جمال الدين ،مغني اللبيب عن كتب الأعراب ،تحقيق مازن المبارك ومحمد حمد الله ،ط2 ،مكتبة سيد الشهداء، (د.ن)، 1972م ، 414/1 .

(11) انظر: القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن ،ط5،دار الكتب العلمية، بيروت ،1996م ، 162/20، الطبرسي،مجمع البيان في تفسير القرآن،دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 379/10، أبو حيان ، البحر ، 527/8.

(12) الآية (عبس ، 17) .

(13) انظر هذين الوجهين :النحاس ،إعراب القرآن،151،و مكي ، المشكل ، 803/2، وابن الأنباري ،البيان ، 494/2.

(14) انظر :ابن فارس ، أبو الحسين أحمد ،الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ،تحقيق عمر الطباع ،ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م ،236، والأستراباذي ،رضي الدين محمد ،شرح شافية ابن الحاجب ،تحقيق محمد الحسن وآخرين ،دار الكتب العلمية ،بيروت 1982م ، 168/1، ومن ذلك :ماله معقول ولا مجلود ،أي :ليس له عقل ولا جلد .

(15) انظر الأستراباذي ،شرح الشافية ،524/3، والمبرد ،أبو العباس محمد، المقتضب ،تحقيق محمد عضيمة ،ط1،عالم الكتب ،بيروت ، 1968م ، 246/3. ومن ذلك أصغركم وأكبركم ، والمعنى : صغيركم وكبيركم .

(16) انظر الأسترابادي، شرح الشافية، 162/1، ومن ذلك الذَّبْح والطَّحْن، والمعنى:
المذبوح والمطحون .

(17) الآية (هود، 43) .

(18) أشار إلى المعنيين: الفراء، معاني القرآن، 15/2، وأبو حيان، البحر، 227/5، ابن منظور، اللسان، مادة "عصم"، واكتفى ابن قتيبة بمعنى "مفعول" انظر كتابه: تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، 204 .

(19) رجح بعض المفسرين أن "عاصم" في سياقها الشريف ذاك على بابها، أي: اسم فاعل مع ذكرهم المعنيين، انظر: القرطبي، الجامع، 28/9، وذهب الطبرسي أن لها ثلاثة معان، وهي: عاصم ومعصوم، وذو عصمة، أي النسب. انظر الطبرسي، 208/5.

(20) الآية (الغاشية 10).

(21) انظر ما قيل فيها: الفراء، معاني القرآن، 257/3، والمعنى عنده: حالفة على كذب، وأبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1962م، 296/2، والمعنى عنده "اللغو"، وابن قتيبة، تفسير الغريب، 458 وابن منظور، اللسان، مادة "لغا" .

(22) انظر: القرطبي، الجامع، 23/20، واكتفى الطبرسي بمعنيين، وهما: كلمة ساقطة، وذات لغو، انظر: مجمع البيان، 266/10.

(23) الآية (طه، 59، 58) .

(24) الآية (هود، 81).

(25) الآية (الحجر، 43).

(26) انظر: ابن هشام، المغني، 776/2.

(27) انظر: القرطبي، الجامع، 142/11.

(28) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 27/7.

(29) الآية (البقرة، 282).

(30) انظر ما قيل في هذه الآية :الزمخشري ،الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،ط1، دار الفكر ،القاهرة، 1977م ،404/1 ،وأبو حيان، البحر، 370/2،وقد ذهب إلى المعنيين النحاس ،إعراب القرآن، 346/1 .

(31)القرطبي،3/261-262.

(32) الطبرسي، مجمع البيان ، 2/173.

(33)الآية (الحديد ،22).

(34)انظر هذه الوجوه :مكي ،المشكل ،719/2،وابن الأنباري ،البيان،2/424.

(35) وذهب بعضهم إلى أن الآية متصلة بما تقدمها ، انظر ما قاله فيها القرطبي:الجامع ،167/17، واكتفى الطبرسي بعود الهاء على "الأنفس". انظر : مجمع البيان ،9/308.

(36)الآية (البقرة ،23).

(37)أبو حيان ،البحر،2/298،واكتفى الفراء بعوده على "القرآن" ،انظر: الفراء،معاني القرآن ، 1/19.

(38)يقول القرطبي : "والضمير في "مثله" عائد على القرآن عند الجمهور ،...، وقيل يعود على التوراة والإنجيل " . انظر : الجامع ، 1/162،والطبرسي ، مجمع البيان ، 1/89.

(39)الآية (الإسراء ،87).

(40) انظر : القرطبي ، الجامع ، 1/162، الطبرسي ، مجمع البيان ، 1/89.

(41)الآية (النحل ،123).

(42)رجح مكي وابن الأنباري كونها حالا من الضمير لا من إبراهيم لأنه مضاف إليه ،وقد عدها ابن عقيل حالا من إبراهيم مجوزا مجيء الحال من المضاف إليه، انظر :مكي ، المشكل ،426/1، وابن الأنباري ،البيان ، 2/85، وابن عقيل، بهاء الدين ، شرح ابن عقيل ،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،ط1،دار الخير، بيروت ،1،1990/536.

(43)الآية (الرعد ،8).

(44)الآية (سبأ،28).

(45) أشار إلى المعنيين :النحاس، إعراب القرآن، 352/2، وقد رجح العطف، والمعنى عنده :إنما أنت منذر وهاد ،ومكي ،المشكل ،48/2.

(46) الآية (آل عمران ،154) .

(47) أشار إلى المعنيين :النحاس ،إعراب القرآن ،413/1، ومكي ، المشكل، 177/1، وابن الأنباري ،البيان ،226/1.

(48) الآية (ق، 31).

(49) انظر إعراب هذه الآية :النحاس ،إعراب القرآن، 230/4، والعكبري، التبيان، 1176/2، وابن هشام ،المغني ،729/2.

(50) الحديث عن الإضافة يتصل بمبحث الغموض ،وقد عرج على الجمل من مثل "ضرب علي تشومسكي في معرض حديثه عن البنية السطحية والبنية العميقة، انظر: تشومسكي ،نعوم ،البنى النحوية ،ترجمة يوثيل عزيز ،ط1، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ،1987م ، 116 ، وانظر أيضا :

Kooij, j, Ambiguity in Natural Language :An Investigation of Certain Problems in its Linguistics Description, North Holand ,Publishing Company ,Amsterdam 1971, P100.

(51) الآية (مريم ،28).

(52) انظر هذين المعنيين :ابن الأنباري ،البيان، 136/2، والعكبري ،التبيان، 881/2، وأبو حيان ،البحر، 202/6 .

(53) الآية (التوبة ،8) .

(54) انظر ما قيل في معنى "الإل" :أبو عبيدة، المجاز ، 253/1، وابن قتيبة، تفسير الغريب ،183، وابن عزيز ،نزهة القلوب ،126، والزمخشري ،الكشاف، 176/2، وأبو حيان ،البحر، 15/5 .

(55) الطبري ،أبو جعفر محمد بن جرير ،تفسير الطبري ،تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ،القاهرة ،1969م، 148/14 .

(56) الآية (التوبة ،41) .

(57) انظر هذه المعاني :الزمخشري ،الكشاف ،191/2، وأبو حيان ،البحر، 46/5.

(58) القرطبي، الجامع ، 96/8.

- (59) الطبرسي، مجمع البيان ، 27/7.
- (60) الآية (التوبة ،36).
- (61) الآية (آل عمران ،39).
- (62) انظر: ابن قتيبة ،تفسير الغريب ، 10 ،وابن فارس ،المقاييس ،مادة "حصر" ، ابن منظور ،اللسان،مادة "حصر " .
- (63) القرطبي ، الجامع ، 50/4.
- (64) انظر هذه المعاني :أبو عبيدة ،المجاز،92/1،وابن قتيبة ،تفسير الغريب، 105، وابن عزيز ،النزهة ،200، الطبرسي ، مجمع البيان ، 222/2، وأبو حيان، البحر،467/2 - 468.
- (65) ابن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن ،تحقيق السيد صقر ،المكتبة العلمية ،بيروت، 1973م،7،والآية(الواقعة،19).
- (66) الآية (الأنعام ،36).
- (67) انظر الزركشي ،البرهان،353/1،وابن الأنباري ،إيضاح الوقف والابتداء، 632/2.
- (68) الآية (ياسين ،76).
- (69) انظر :ابن هشام،المغني،502/2،وقد عده النحاس والداني قطعا تاما ،انظر: القطع والائتلاف ، تحقيق أحمد العمر ،ط1، مطبعة العاني ،بغداد ،1978م ،601 والداني ،المكتفى ، 302 .
- (70) الآية (هود ،12).
- (71) انظر: الأستراباذي ،شرح كافية ابن الحاجب ،تحقيق إميل يعقوب ،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت ،1998م،483/3 .
- (72) انظر:الأستراباذي، شرح الكافية،484/3 .
- (73) الآية (آل عمران ،159).
- (74) الآية (الروم ،27) .
- (75) أبو عبيدة ،المجاز ،121/2،والمبرد ،المقتضب ،246/3،و ابن يعيش ،شرح المفصل ،عالم الكتب ،بيروت (د.ت)،103/6 .

(76) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م، 25.

(77) الآية (الإسراء، 40).

(78) انظر: الجرجاني، الدلائل، 114.

(79) الآية (النساء، 43).

(80) انظر ما قيل في معنى اللمس: ابن فارس، المقاييس، مادة "لمس"، وابن عزيز، النزهة، 388، والجرجاني، أبو العباس أحمد بن محمد، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م، 9. وقد ذهب إلى أن اللمس في الآية الشريفة كناية عن الجماع. انظر: ابن قدامة المقدسي، المغني، مطبعة الفجالة، القاهرة، 1968م، 142/1، وأبو حيان، البحر، 296/3.

(81) الآية (المائدة، 6)

(82) انظر: ابن هشام، المغني، 143/1، وقد ذكر معنى الاستعانة، ورجح معنى الإلصاق، أما العكبري فقد رجح زيادتها رافضا كونها للتبعيض، انظر التبيان، 422/1، وانظر خلاف الفقهاء: عبد الوهاب طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، دار السلام، القاهرة، 1414هـ، 193.

المصادر والمراجع :

1. الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة (215)، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة 1990م .

2. الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (686)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م

3- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (686)، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق أميل يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م

4- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (577)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1980م .

- 5- ابن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم (328) ، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، تحقيق محيي الدين رمضان ، ط1 ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، 1971م .
- 6- الجر جاني ، أبو العباس أحمد بن محمد (482) ، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1984م .
- 7- باي ، ماريو ، أسس علم اللغة ، ترجمة أحمد مختار عمر ، منشورات جامعة طرابلس ، طرابلس ، 1973م .
- 8- تشومسكي ، نعوم ، البنى النحوية ، ترجمة يوثيل عزيز ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1987م .
- 9- الجر جاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (471) ، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمود شاعر ، ط2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1989م .
- 10- أبو حيان ، محمد بن يوسف (745) ، تفسير البحر المحيط ، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1993م .
- 11- الداني ، أبو عمرو عثمان بن سعيد (444) ، المكتفى في الوقف والابتداء ، ط1 ، تحقيق جابر مخلف ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ، 1983م .
- 12- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله (794) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، 1987م .
- 13- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر (538) ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الفكر ، القاهرة ، 1977م .
- 14- السجستاني ، أبو بكر محمد بن عزيز (330) ، نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز ، تحقيق يوسف المرعشلي ، ط1 ، دار المعرفة ، بيروت ، 1990م .
- 15- ابن السيد ، عبد الله بن محمد البطليوسي (521) ، الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ، تحقيق محمد الداية ، ط3 ، دار الفكر ، بيروت ، 1987م .

- 16- السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (511)،الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة الباز ، ط2، مكتبة الباز ، الرياض ،1998م .
- 17-الطبرسي،الفضل بن الحسن(--5)،مجمع البيان في تفسير القرآن ،دار الكتب العلمية، بيروت ، 1997م.
- 18_ الطبري ،أبو جعفر محمد بن جرير (310) ،تفسير الطبري ،تحقيق محمود شاکر، دار المعارف ، القاهرة ، 1969م.
- 19-عبد الوهاب طويلة ، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين ، دار السلام ، القاهرة، 1414 .
20. أبو عبيده ، معمر بن المثنى (210) ، مجاز القرآن ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1962م.
- 21- ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله (769)، شرح ابن عقيل ،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط1، دار الخير ، بيروت ، 1990م.
- 22- العكبري ، أبو النقاء عبد الله بن الحسين (616)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي البجاوي ، ط2،دار الجيل بيروت،1987م.
23. الغزالي ،الإمام أبو حامد محمد بن محمد (505)،المستصفى في علم الأصول ، تحقيق إبراهيم رمضان ،دار الأرقم ،بيروت ،1994م.
- 24- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس (395)، معجم مقاييس اللغة ، ط1، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل، بيروت ، 1991م.
- 25- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس (395) ، الصاحبى في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، تحقيق عمر الطباع ، ط1، مكتبة المعارف ،بيروت، 1993م.
- 26- الفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد (207)، معاني القرآن ،تحقيق أحمد نجاتي ، ومحمد النجار ، الدار المصرية ، القاهرة،1955م.
27. القرطبي ،محمد بن أحمد(671)،الجامع لأحكام القرآن ،ط5، دار الكتب العلمية، بيروت،1996م.

- 28- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276) ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، 1973م .
- 29- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276) ، تفسير غريب القرآن ، تحقيق السيد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1978م .
- 30- ابن قدامه المقدسي (20 6) ، المغني ، مطبعة الفجالة الجديدة ، القاهرة ، 1968م .
- 31- القسطلاني ، شهاب الدين أحمد بن محمد (923) ، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر السيد عثمان ، وعبد الصبور شاهين ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، 1972م .
- 32- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (285) ، المقتضب ، تحقيق محمد عزيمة ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1968م .
- 33- مكّي بن أبي طالب (437) ، مشكل إعراب القرآن ، تحقيق حاتم الضامن ، وزارة الإعلام ، بغداد 1975م .
- 34- ابن منظور ، أبو الفضل مجمد بن مكرم (711) ، لسان العرب ، ط1 ، دار صادر ، بيروت ، (د . ت)
- 35- النحاس ، أبو جعفر أحمد بن محمد (338) ، إعراب القرآن ، تحقيق زهير زاهد ، ط3 ، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، بيروت ، 1988م .
- 36- النحاس ، أبو جعفر أحمد بن محمد (338) ، القطع والائتلاف ، تحقيق أحمد العمر ، ط1 ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1978م .
- 37- ابن هشام ، جمال الدين بن هشام (761) ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، تحقيق مازن المبارك ، ومحمد حمد الله ، ط2 ، مكتبة سيد الشهداء ، (د . ن) 1972م .
- 38- ابن يعيش ، موفق الدين (643) ، شرح المفصل ، عالم الكتب ، بيروت ، (د . ت)
- الإنجليزية :

(39)Katamba, F, An Introduction to Phonology, Longman.,New York, 1989.

(40)Kooij, J. , Ambiguity in Natural Language; An Investigation of Certain Problems in its Linguistics Description , North Holand ,Publishing Company, Amsterdam, 1971.

(41)Robins,R.H.,General Linguistics,Longman, New York, 1989.

(42)Singh ,S., Phonetics: Principles and Practise, University of Park Press , 1982